صرخ فرانز: «جليد!»

قلت: «لا يا ولدي، هذا ليس جليدًا، إنه قطن!» وكنت صائبًا فيما قلت، وسرعان ما بدأنا نجمعه في حزم كي نغزله ونصنع المزيد من الملابس.

في تلك الأثناء، بدأنا العديد من المشاريع وانتهينا منها. كان وقتًا مزدحمًا لأننا كنا عاقدي العزم على بناء مستعمرتنا الآن، فعثرنا على مكان رائع لإنشاء مزرعة جديدة به تل تكسوه الخضرة، وأشجار تلقي بظلها على طول النهر. كنا مصممين على أن نحصد كل ما نستطيعه من الأرض. وبدت هذه بقعة مناسبة لزراعة القطن وغيره من المحاصيل التي قد نحتاجها لصنع الملابس.

بدأنا في الحال في بناء حظيرة خشبية حتى تصير حيواناتنا في مأمن وسعادة في الأرض حتى لو لم نكن معها، وخصصنا مكانًا في الحظيرة نربط فيه الحيوانات ومأوى للطيور.

في تلك الآونة وجدنا تلًّا قريبًا وبنينا عليه كوخًا صغيرًا وسميناه «تل الآمال»، وهو بناء بسيط من الألواح الخشبية، لكنه سيكون منزلًا لطيفًا نأوي إليه عندما نأتي لزراعة هذه الأرض أو حصاد محاصيلها. في تلك الأثناء، صنعنا أيضًا زورقًا خفيفًا من إحدى الأشجار. وبعدما انقضى هذا الوقت المزدحم الذي قضيناه في تشييد منزل مزرعتنا الجديدة، اتجهنا ونحن متعبون وفي الوقت نفسه راضون عائدين إلى منزل غابة الصقور ومنها إلى أرض الخيمة.

لدى عودتنا وجدنا أن إحدى بقرتينا كانت قد أنجبت عجلًا. وطلبت من فرانز أن يعتني به.

رد قائلًا: «بالطبع يا أبي! ولسوف أسميه جرامبل «المتذمر» بسبب الضوضاء التي يصدرها!»

رأينا كلنا هذا رائعًا، وعاودنا العمل في كهفنا، فسوينا الأرض وأتممنا تجهيز الغرف، بل وصنعنا سجادة من وبر بعض حيواناتنا.

وافق اليوم التالي الذكرى السنوية الأولى لرسونا على الجزيرة، فقررنا أن ندعوه يوم «عيد الشكر». استيقظت ذلك الصباح على صوت فرقعة عالٍ، فهرعت إلى خارج الكهف لأجد الأولاد قد أطلقوا المدفع للاحتفال. اعتذر الأولاد عن ذلك، لكنني تفهمت شعورهم بالفخر. وقررنا أن نحتفل بقضاء يوم في مزاولة الرياضة.

بدأنا بالرماية، حيث كانت البطولة من نصيب فريتز، ثم انتقلنا إلى السباقات، فجعلت فريتز، وإيرنست، وجاك يركضون من أرض الخيمة إلى منزل غابة الصقور

ويحضرون لي سكين جيب تركته هناك، فانطلقوا كالرصاصة وسرعان ما تواروا عن الأنظار، لكن بعدها بفترة وجيزة حدث شيء غاية في الغرابة.

ظهر جاك مسرعًا عبر الجسر، لكنه لم يكن على قدميه، وإنما كان ممتطيًا الجاموسة التي كان يتبعها زوج من قردتنا.

قال جاك ضاحكًا: «وجدت أنني لن أفوز، لذا بدا لي أن أعود في فخامة مثلهم!»

عاد إيرنست أولًا ومعه السكين وأُعلن الفائز. بعدها كانت مسابقة التسلق. في هذا السباق تسلق جاك مثل ماعز الجبل، وامتاز على بقية إخوته؛ إذ وصل إلى قمة الشجرة قبل أن يستطيعوا أن يبدءوا.

وأمتعنا فرانز بعرض، إذ هلّ علينا من الكهف وصاح قائلًا: «أيها القضاة، أقدم لكم شيئًا جديدًا ومذهلًا. أنا، مروض العجول، سأريكم الآن خُدعًا مذهلةً!» خرج العجل جرامبل من الكهف وبرقبته زمام، وأخذ يركض، ويخبُّ، ويقفز فيما علا صوت تصفيقنا كلنا. أنهينا اليوم بالسباحة، فكان جميع الأولاد أكفَاء للغاية، لكن مرة أخرى كان فريتز الأقوى.

عندما انتهت المسابقات، كانت زوجتي جاهزة بالجوائز التي جاءت بها من مؤن سفينتنا، فسلمت فريتز مكافأة من أجل فوزه بمسابقتي الرماية والسباحة. كانت بندقية جديدة وسكين صيد. وأعطت إيرنست ساعة ذهبية لفوزه بمسابقة العدو، وأعطت جاك مهمازًا وسوطًا، من أجل فوزه في مسابقتي الركض والامتطاء. وقد سعد بجائزته سعادة كبيرة. وأخيرًا أعطت فرانز سرجًا مصنوعًا من عظم وحيد القرن وسوطًا من أجل تدريب الحيوانات. وفي آخر الأمر، أعطيت زوجتي صندوقًا جميلًا كنت قد عثرت عليه بين الحطام القديم وخبأته ليكون مفاجأة.

في نهاية اليوم، أراد الأولاد أن يطلقوا قذيفة مدفعية أخرى. فأنهينا يومنا بفرقعة عظيمة دوت أصداؤها بطول الشاطئ. لقد كان يومًا عظيمًا بحق، وقد أذهلني مدى التقدم الذي أحرزناه خلال عام واحد.

الفصل الثاني عشر

غراء!

في اليوم التالي، ذهبنا إلى أشجار القرع كي نصنع المزيد من الأوعية، فوجدنا الأشجار كبيرة وسليمة والقرع صالحًا لاستخدامنا. في تلك الأثناء، كان فريتز وجاك بالخارج يثقبان الأشجار من أجل الحصول على المطاط، ورجعا باكتشاف جديد.

قال فريتز وهو يمسك بنبات: «رأينا جماعات من القرود تقتلع هذه الأشياء من الأرض وتأكلها، فأبعدناها وتذوقناه. إنه طيب للغاية، وقد أطلقنا عليه نبات القرود.»

ابتسمنا لدى سماع الاسم، وعندما تفرسته لأعرف ما هذا، ابتهجت.

قلت: «يا أولاد، هذا نبات الجينسنج، وهو نافع من أجل صحة جيدة ويصلح كدواء. أحسنتما!»

استطرد فريتز قائلًا: «لكن الخبر السيئ أن القردة كادت تدمر المزرعة. لقد عبثوا بكل شيء، وصارت الحيوانات والكوخ في حالة من الفوضى، سنضطر إلى العودة إلى هناك لنصلح ما فسد.»

كنا قد أمسكنا في وقت سابق بحمام، بأن ألصقنا المطاط بأفرع الأشجار ثم انتظرنا حتى حطت الطيور عليها ولصقت بها. رجوت أن تصلح نفس الطريقة مع القردة في المزرعة. اتجهنا إلى المزرعة وألصقنا المادة اللزجة في كل الأرجاء، وانتظرنا وصول القردة. وما لبثت أن وصلت وسرعان ما علقت في كل مكان بسبب المادة اللزجة، بل علقت أيضًا في الطاسات وغيرها من الأشياء التي تركناها من أجل أن تعلق بها. طاردت الكلاب القردة التي تبعثرت وولت الأدبار بلا رجعة.

تذكرت مرة أخرى القردة العالقة في المادة اللاصقة عندما خرج جاك بمفرده في أحد الأيام بعدها بفترة وجيزة في محاولة لاكتشاف شيء جديد ليأتي به إلينا، وبدلًا من

ذلك، عاد إلينا مغطى بالوحل على وشك البكاء. كنا جميعًا سننفجر ضحكًا لولا أنه بدا في حالة مزرية.

سألته: «ماذا حدث؟»

أجاب: «كنت أحاول الحصول على بعض الخيزران لنستعمله، لكنني علقت وسقطت في المستنقع. وقد أنقذني تيرك عندما سحبني للخارج!»

شعرنا جميعًا بأننا محظوظون لاقتنائنا هذا الحيوان الأليف، وكانت فكرة جاك في الحصول على الخيزران هي عين ما كنت أحتاجه لتنفيذ الفكرة التي كانت تلح عليّ مؤخرًا. لقد عزمت على صنع نول نسج لزوجتي فهذا ما كنت أريده. وعندما انتهيت من صنعه، سعدت به زوجتي أيما سعادة، وأعدّته للاستخدام في الحال كي تنسج من خيوط قطننا المغزول قماشًا.

استخدمت بقية الخيزران في صنع ماسورة تصل ما بين النهر والكهف وصنعت أنبوبًا ماصًّا إلى أن صعد الماء إلى الماسورة. من الجيد أن يكون لدينا ماء جارٍ إبان الشتاء، فالشتاء سيهلّ علينا سريعًا مرة أخرى. عن قريب ستنهمر الأمطار مرة أخرى. لقد حان وقت الحصاد.

الفصل الثالث عشر

الشتاء الطويل

قضينا أيامًا عديدة نجمع الجذور، والحبوب، والفاكهة، وجوز البلوط. ملأنا قدر استطاعتنا العديد من الغرف بما كان لدينا. وأخذ الطقس يكفهر ويغيم مرة أخرى، وهزيم الرعد والبرق في كل الأرجاء. صار الشتاء على الأبواب، ووجب علينا أن نتأهب لاثني عشر أسبوعًا من المطر البارد.

قضينا وقتنا في الكهف نحاول أن نجعله دافئًا مريحًا. استخدمنا عمود خيزران كبيرًا كي نعلق شمعة بأعلى من ثم يكون لدينا إضاءة. وصنعنا مكتبة وضعنا كتبنا على أرففها، وزينا الجدران بالخرائط والمخططات التي عثرنا عليها في حطام السفينة. صنع جاك وزوجتي غرفة معيشة ومطبخًا، وبنيت أنا وفريتز ورشة. كان كهفنا كبيرًا للغاية. وصرنا متأهبين لقدوم الشتاء.

قررت أنا وزوجتي أن نستغل شهور الشتاء في تعليم الأولاد، فقد كانت فرصة جيدة أن يتعلموا لغة أخرى بخلاف لغتنا الأصلية الألمانية، لذا درسنا جميعًا اللغة الفرنسية من الكتب التي أنقذناها من الحطام.

قال جاك: «أنوي أن أتعلم اللغة الإسبانية! يروق لي الوقار الذي تضفيه هذه اللغة على متحدثيها!» حاول الأولاد أن يتعلموا أيضًا اللغتين الإنجليزية والهولندية بمساعدة والدتهم. وسرعان ما تعلمنا كلنا كلمات وعبارات معدودات من كلتا اللغتين.

قضينا وقتنا أيضًا نفتح كل الصناديق التي جئنا بها من الحطام ونقلب فيها للعثور على كنز، فعثرنا على مقاعد، وساعات، وصندوق موسيقي، والعديد من الأشياء الأخرى. وهكذا قضينا الشتاء الطويل، لكن لم يبد منزلنا كالسجن هذه المرة.

ومع نهاية الموسم، ازداد الطقس ضراوة، فهبت العواصف وأومض البرق في السماء، وصارت الريح كأنها الإعصار، وبعدها توقف كل هذا فجأة.

تمشينا في أول يوم جاف، وعبر التليسكوب رأينا شيئًا ما في الطرف الأقصى من الشاطئ، شيئًا كأنه قارب مقلوب، وقررنا أن نكتشف المزيد. كنا في غاية السعادة لأننا عدنا للاستطلاع. وفيما كنا نقترب منه لاحظنا أنه لم يكن قاربًا وإنما كان حوتًا ضخمًا جانحًا انجرف مع التيار ومات. حقًّا كانت العاصفة هوجاء. غير أن العاصفة المدمرة جرفت أيضًا شعبًا مرجانية وأصدافًا جميلة في كل الأرجاء أخذ الأولاد يجمعونها. عدنا أدراجنا إلى منزلنا كي نحضر الأدوات اللازمة كي نقطع دهن الحوت، فسيكون زيته نافعًا. تسلق فريتز وجاك الحوت كي يبدآ في العمل، وفيما كنا نقطّع الحوت، كان المكان مليئًا بالطيور التي التهمت لحمه وأزعجتنا إزعاجًا شديدًا. وما إن انتهينا أخيرًا من نزع دهن الحوت ولحمه، حتى غصنا بداخله أكثر كي نحصل على عظامه لنستخدمها كمصابيح تضيء بالزيت. تركنا بقية الطيور وحمّلنا قاربنا بكل ما استطعنا حمله، وقررنا أن نسمي المكان «شاطئ الحوت». عدنا إلى منزلنا متعبين ورائحتنا كريهة، فاغتسل الجميع، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى ماسورة الخيزران. ارتدينا ملابس نظيفة وتناولنا عشاءنا وكنا جميعًا سعداء لأننا انتهينا من مهمة الحوت.

في الصباح التالي، أريت الأولاد كيف يحصلون على الزيت من دهن الحوت، فكان يوم الروائح الكريهة والعائلة التعسة. كنا كلنا على دراية بأهمية الزيت من أجل المصابيح والأغراض الأخرى، لكن العمل لم يكن محببًا إلى أي منا. فقررنا جميعًا أنه عندما تنقر الطيور عظام الحوت فتخليه من اللحم تمامًا، ننصب خيمة هناك، وبذلك عندما تكون لدينا مهمة تتسم بالقذارة كهذه، نؤديها بعيدًا عن منزلنا.

عندئذ شرعت في صنع ماكينة تجديف صغيرة لقاربنا، وكانت ببساطة تقوم على ترس يحرك المجاديف. سُر الجميع بها، وقررنا في اليوم التالي أن نأخذ القارب إلى رأس الإحباط كي نتفقد حيواناتنا. وعندما اقتربنا منها، وجدناها خائفة منا، لأننا اختفينا وقتًا طويلًا في كهفنا الشتوي، ولم نستطع أن نحلب الماعز إلا بعد أن اضطررنا لربطها. واضطررنا أن نمسك بجميع الدجاج والطيور مرة أخرى. وعندئذ حملنا قاربنا بالبيض والحليب وما استطعنا أخذه من الأرض وشققنا طريقنا إلى شاطئ الحوت، وعندما عدنا قضيت بعض الوقت أصنع سلالًا وصهوات وأطواقًا وغيرها من الأشياء من أجل الحيوانات التي نحن بحاجة إليها.

الأمر الذي أوحى للأولاد بفكرة رائعة.

الفصل الرابع عشر

فراق صديق

سأل فريتز: «لمَ لا نصنع كرسيًّا من الصفصاف لأمي كي تجلس عليه؟»

رد إيرنست: «أجل، بمقدورنا أن نصنعه ثم نضعه على العجل والبقرة!»

وسرعان ما علق الصبيان سلة كبيرة بين العجلين ستورم وجرامبل، وقفز كل من جاك وفريتز على كل حيوان منهما، وعندئذ قفز إيرنست إلى السلة ليجربها. ساروا رويدًا رويدًا وبدا أنها تعمل على نحو رائع.

قال إيرنست: «إنه رائع ولطيف، أسرع يا فريتز!» وعلى الفور أسرع الحيوانان وكان إيرنست يتحرك لأعلى وأسفل في السلة طوال الطريق فيما انفجر إخوته في الضحك.

لكن فرحتنا لم تدم طويلًا.

ففي اليوم نفسه، وبينما كنا نجلس في رواق الكهف، إذ بفريتز يصرخ وهو ينظر نحو الطريق.

قال فريتز: «أستطيع أن أرى شيئًا غريبًا ومزعجًا! إنه ينهض ثم ينبسط على الأرض كأنه سلك. إنه يزحف ملتويًا آتيًا باتجاه الجسر!»

وثبت ونظرت عبر التليسكوب.

صرخت: «هذا ما خشيته، إنه ثعبان ضخم من نوع ما، وهو قادم بهذا الاتجاه!»

صرخ فريتز: «لنهاجمه!»

أجبته: «إذا فعلنا هذا، فسيتعقبنا إلى هنا في ديارنا. لا بد أن نجد طريقة نهاجمه بها بعيدًا عن هنا. اذهب وأحضر البنادق وسوف نختبئ كلنا ونراقبه.»

شاهدت الأفعى تقترب وقد عبرت الجسر بالفعل رافعةً رأسها العملاق في الهواء مسافة عشرين قدمًا تقريبًا. لقد كانت تسعى لاقتناص فريسة. اختبأنا وهي تعبر الجسر واستعددنا لها؛ بنادقنا محشوة وقلوبنا تدق بقوة.

عندما اقتربت منا، توقفت وكأنها شمت رائحتنا. رفعت نفسها متحركة من جانب لآخر، ولم يستطع الصبيان المقاومة وأطلقوا النيران عليها، بل حتى زوجتي أطلقت النيران على الوحش. كل هذه الطلقات بلا جدوى، وببساطة انسلت إلى جانب كهفنا ثم إلى المستنقع. لقد تخلصنا منها حتى الآن، لكن القلق استبد بنا جميعًا.

قلت: «يا أولاد، هذه أفعى البوا العاصرة، وأعتقد أن طولها يزيد على ثلاثين قدمًا.»

منعت عائلتي منعًا باتًا من الخروج من المنزل إلى أن نقتل الوحش. عرفنا أنه على مقربة منا لأننا كنا نسمع البط والإوز يصدر أصواتًا تنم عن خوفه بالقرب من القصب. فجأة هرب كل البط والإوز بعيدًا ولم يتوقفوا إلى أن وصلوا جزيرة القرش. وإلى أن نستطيع أن نجتذب الثعبان إلى مكان فسيح بعيدًا عن منزلنا، كنا جميعنا محبوسين. وأخيرًا أنقذنا بطل غير متوقع: حمارنا.

لما كنا لا نستطيع أن نغادر كهفنا كي نطعم الحيوانات، أخرجتهم خارجًا عبر الجسر كي يعودوا إلى مرعاهم. لكن الحمار كان غاية في الفرح بسبب إطلاق سراحه فركض نحو المستنقع. وإذ بالحية تنتصب وتحرك لسانها بسرعة وتفغر فاها وتهجم على الحيوان المسكين الذي انتهى أمره في الحال.

صرخ الأولاد: «أبانا، أطلق النيران على الثعبان الآن!»

قلت لهم: «ليس بعد، أفضل فرصة لنا الآن هي أن ننتظر حتى يلتهم الثعبان فريسته وعندئذ نتمكن منه.»

فكرنا جميعًا في حياتنا وفي الثعبان القريب منا للغاية. لم تستطع زوجتي وفرانز المشاهدة ودخلوا إلى الكهف. وسرعان ما رقد الثعبان نائمًا تقريبًا إلى جانب النهر منتفخًا. فكانت فرصتنا الآن للانقضاض عليه.

خطونا في هدوء متسللين شاهرين بنادقنا. رقد الثعبان ساكنًا، ذيله يتحرك بسرعة، وعيناه متقدتان كاللهب. كلنا كنا مرعوبين ومتحمسين، وفي وقت واحد أطلقنا جميعًا النار على رأسه، ففارقت الحياة عينيه. وقفت العائلة بأكملها فوقه في ذهول.

قال فريتز: «دعونا نحنطه! يمكننا أن نضعه في متحفنا!»

سأل إيرنست: «ألا يمكننا أن نأكله؟»

أجابت زوجتي: «بالطبع لا. الثعابين سامة!»

قلت: «هذا ليس صحيحًا. في حقيقة الأمر، تأكل الناس الأفاعي بعد أن ينزعوا أنيابها السامة. بل يمكنك صنع الحساء منها.» ثم سألت إيرنست: «لكن يا إيرنست، هل

يمكنك أن تفكر أولًا في بعض الكلمات لتقولها لحمارنا المسكين الذي ضحى بحياته من أجلنا؟»

قال إيرنست: «دعني أفكر.» فانتظرنا كلنا.

قال أخيرًا: «وجدتها. لكن لا تضحكوا.»

أجبته: «بالطبع لن نضحك.»

وهكذا بدأ:

جريزل المسكين يا من ترقد تحت الصخرة
كم كنت صديقًا وفيًّا أحببناك
عصيت أمرنا فخرجت في عثرة
وهكذا يا صديقي فقدناك
جاءت من بين العشب أفعى
فالتهمتك ورأيناك
هذا قدرك لن يتغير
لكن نشكرك على الفداء
فداء أب وأم وأربعة أبناء!

هللنا كلنا لقصيدته ودونتها أنا على حجر مسطح، حيث سندفن لاحقًا بطلنا.

بعد العشاء، جررنا الثعبان بعيدًا حيث نزعنا جلده، وحنطناه، وخيطناه حتى يتسنى للأولاد دراسته. وضعناه في المتحف فاغرًا فاه، ملتويًا حول عمود، فجعلنا منظره يبدو مرعبًا قدر الإمكان، بل وصنعنا لسانًا وزوج عيون من أحجار الشاطئ اللامعة حتى يبدو أكثر رعبًا.

الفصل الخامس عشر

الخطر الأعظم

بعد هذه التجربة المرعبة، لم يستطع أي منا أن يسترخي تمامًا. كانت الطريقة الوحيدة لضمان أننا في مأمن هي تطهير الجزيرة من المزيد من المخاطر. اصطحبت الأولاد وخرجنا للاستطلاع مرة أخرى. شرحت للأولاد أننا ربما نقضي أسابيع لأنني خططت لعبور الجزيرة واكتشاف كل المخاطر التي قد تكون موجودة، وإلى أن نعرف، لا يمكن أن يهنأ لنا بال، فربما كان هناك ما هو أشد ضراوة من الثعبان المتوحش. حزمنا أمتعتنا وتأهبنا للرحيل.

وفي يوم من الأيام أثناء رحلتنا، اصطحبت فرانز معي لأختبر مهاراته في الصيد، وارتاح بقية الأولاد، وبينما كنا نخوض في مستنقع، صادف ما ظنه خنزيرًا، فصوب نحوه، وعندما اقتربنا منه اكتشفنا أنه ليس خنزيرًا، وإنما خنزير الماء المعروف بالكابيبارا صاحب الهُلب والشعر الأصفر، فأخذناه معنا إلى مخيمنا، وتباهى فرانز بغنيمته.

عاد الباقون بكنوزهم أيضًا؛ فكانت هناك طيور للعشاء، وكان فريتز قد أحضر بعض التفاح الغريب الذي جعلنا نيبس يجربه أولًا. بدا أنه راق لنيبس لذا جربناه فوجدناه تفاحًا بلون القرفة كان شهيًّا للغاية. لم نعثر على أي ثعابين، وكنا على وشك الشعور بالمزيد من الاطمئنان، فنمنا جميعًا نومًا هنيئًا.

في اليوم التالي التقينا خنزيرًا بريًّا، أمسكناه وذبحناه وصنعنا منه لحمًا مدخنًا دخناه على مدار بضعة أيام. بعدها واصلنا بحثنا عن الأفاعي في تل الآمال فوجدناه معمورًا بالقردة أيضًا. كان المكان في حالة من الفوضى، ولم نستطع أن نصلحه حينها لأننا كنا مضطرين أن نواصل بحثنا.

مضينا قدمًا إلى أن وصلنا نهاية الساحل وتوقفنا هناك. نصبنا خيمة مرة أخرى، وفي اليوم التالي انطلقت أنا والأولاد لاستطلاع الأرض الجديدة. وفيما كنا نسير، إذ بنيبس

يركض وهو يعوي. التفتنا لنرى ما الذي أزعجه، وخلنا أننا رأينا فرسانًا يتقدمون نحونا. وعندما اقتربوا تبين لنا أنها طيور نعام! وبعد أن اجتازتنا، اكتشفنا عشًّا مليئًا ببيضها. كانت كل بيضة كبيرة كرأس طفل، لذا لم نستطع أن نحمل معنا سوى اثنتين. ربطناهما بمنديل إلى عصا وحملناهما كالسلة. ومن هناك شققنا طريقنا إلى بئر ماء قريب وتفقدنا الطرق، فكانت هناك آثار لكل الحيوانات عدا الأفاعي. وفي طريق عودتنا إلى الخيمة، سمعنا الكلاب تنبح ورأينا إيرنست يركض نحونا بأقصى سرعة.

صرخ: «أبي، دببة! هناك دببة تطاردني!»

عندما وصل الدبان العملاقان البقعة الخالية من الأشجار طاردانا على أقدامهما الخلفية وهما يزمجران للهجوم علينا. أطلقنا النيران عليهما بأقصى سرعة لدينا فخرّ أحدهما صريعًا، وأردينا الثاني عندما همّ بالانقضاض على فريتز.

صرخت: «حمدًا لله! كان هذا أكبر خطر تعرضنا له حتى الآن. لم نعثر على أي أفاعٍ، لكن هذه الدببة لم تكن أقل منها خطرًا. لقد أحسنا اليوم.»

بعدها شرعنا في صنع بعض السجاجيد المصنوعة من جلد الدب الذي حملناه على ظهر حيواناتنا إلى المخيم. وفي اليوم التالي، انطلقنا إلى البقعة التي هاجمتنا عندها الدببة، وقطعنا لحمًا من الدبين اللذين قتلناهما لنتعشى به هذه الليلة، ودخنا الباقي في الحال كي نحفظه لوقت لاحق. وعندما كنا هناك، عثرت على نباتات عرفت أنها فلفل، فنقعناه وجففناه، وصنعنا لأنفسنا فلفلًا أسود وأبيض.

في تلك الأثناء، جعلت جاك، وفريتز، وفرانز يخرجون في مغامرتهم الخاصة. ومكثت أنا وإيرنست كي ننتهي من عملنا. هرع الأولاد إلى حيواناتهم وانطلقوا في لمح البصر. لقد ابتغيت أن يصيروا شجعانًا وأن يتعلموا كيف يعتنون بأنفسهم. وفي الوقت الذي ذهبوا فيه، وجدت أنا وإيرنست أن كهف الدببة مغطى بنوع من الأحجار يمكن النظر من خلالها عند شقها إلى رقائق، فأدركت حينها أنه يمكن أن أصنع منها زجاجًا للنوافذ، ستطير زوجتي فرحًا بهذا الاكتشاف.

عندما حل الليل سمعنا أصوات حوافر قادمة، فأدركنا أن زمرة المغامرين في طريق عودتهم. رأيناهم يقفزون من فوق حيواناتهم، وقد هرعوا جميعهم نحو المخيم. كانوا متحمسين، وبدت حقيبة فريتز متكتلة وغريبة.

قال جاك: «يحيا الصيد يا أبي! لقد قضينا وقتًا طيبًا للغاية!»

رد فرانز: «أجل، لقد عثرنا على ظبي، وأرانب، بل وجدنا أيضًا طائر الوقواق الذي أرانا أين نجد عسلًا!»

قلت لهم في سعادة: «أحسنتم! والأهم من كل هذا أنكم جميعًا عدتم سالمين. والآن أخبروني القصة كاملة.»

وهو ما فعلوه.

الفصل السادس عشر

كيف تمتطي نعامة؟

قال فريتز: «تمتعنا بركوبة رائعة، فعدونا طوال الطريق في الشمس. وعندما وصلنا إلى أحد التلال، رأينا الظباء، كنا ننوي أن نصطادها، لكننا فكرنا أنه يجدر بنا أن نحاول أن نقودها كقطيع!»

أكمل جاك قائلاً: «نزلنا التل صارخين صائحين، وقدناها مع الكلاب.»

قلت: «عمل عظيم يا أولاد! لقد قمتم بعمل مهم. لكن لا بد أن أحذركم من أن الأرانب التي اصطدتموها قد تمثل مشكلة. الآن وبعد أن حصلتم عليها، قد تكتشفون أنكم تبتغون التخلص منها، فسرعان ما ستنجب أعدادًا كبيرة!»

رد فريتز: «لهذا فكرنا في أنه يجدر بنا أن نضعها في جزيرة القرش يا أبي.»

قال جاك: «لقد أمسكت بها، وليتك رأيتني أنا وستورم وجرامبل والكلاب ونحن نطاردها! لقد كان ذلك رائعًا ...»

ثم أردف في حماس: «وبعدها رأينا طائر الوقواق وتبعناه حيث حطّ بعيدًا. ظن فرانز أنه لا بد أن يكون أميرة مسحورة بتعويذة. أخبرنا فريتز أنه سوف يقودنا إلى مكان العسل، وقد كان محقًّا! وبالفعل قادنا إلى أحد أعشاش النحل الذي لا بد وأننا أرعبناه لأنه طار ولدغني في كل جسمي! قفزت في هياج شديد ووليت الأدبار لكنه تبعني طوال الطريق!»

ركض جاك لاهثًا ليتفقد أرانبه.

في اليوم التالي ذهبنا لنراقب النعام الذي وجدناه. ركض جاك وفرانز أمامنا، وفجأة وجدنا أنفسنا أمام الطيور العملاقة. هذه المرة وجدنا زوجًا من النعام وسط الأجمة، وبلا توانٍ حاولنا الإمساك به ونجحنا. ومرة أخرى نفعتنا الحبال.

وبينما كان جاك وفرانز يقودان النعام خارج الخيزران، أطلق فريتز نسره الذي أربك إحدى النعامات. وعندما هاجت النعامة، طاردها جاك حيث ألقى في جسارة حبله حول جناحيها وجسدها. سقطت النعامة وهرعنا إليها، غير أنها كانت ترفس بجنون. في آخر الأمر وضعت غطاءً حول عينيها كي أهدئها. وبات لدينا نعامة كي ندربها ونروضها.

قال جاك: «سأصنع سرجًا حتى يتسنى لي ركوبها!»

وعندئذ أخذ الأولاد يتجادلون حول من له الحق في ملكية الطائر.

قال فرانز: «أرى أنها لا بد أن تكون لي.» وكان لبقية الأولاد أسباب في الرغبة في امتلاك النعامة لأنفسهم. أخيرًا حللت المشكلة عندما أعلنت أن جاك هو من سيدربها، وأضفت: «وإذا استطاع أن يروضها ويركبها فستكون من نصيبه.»

وافق الأولاد وبدا جاك مستعدًّا للتحدي.

ألقينا النعامة على ظهر ستورم، وشرع الأولاد في أخذها إلى مخيمنا حيث سنستعد للعودة إلى منزلنا الشتوي كي نفرغ ما بحوزتنا من مؤن. في الصباح التالي شققنا طريقنا إلى المنزل ومعنا طائرنا الجديد السائر على قدميه.

ما لبثنا أن وصلنا فناء مزرعتنا لنجده في حالة جيدة، وكانت حيواناتنا بصحة جيدة، مما جعلنا نشتاق أكثر إلى رؤية منزلنا في الحصن الصخري. وكانت تتكاثر عائلات دجاجنا وخنازيرنا وماعزنا. وصادفنا أيضًا قطيع الظباء الذي كان قد ساقه فريتز وجاك إلى هنا. شاهدناها وهي تهرع بين القصب وتحدثنا عن مدى جمالها.

وعندما كنا في المزرعة، أصلحنا ما استطعنا إصلاحه، ثم شرعنا في الانطلاق إلى الحصن الصخري في الصباح التالي. بعدئذ شعرنا جميعًا بالسعادة لدى عودتنا وفتحنا الأبواب والنوافذ لتهوية المنزل. وفيما كان جاك منهمكًا في ترويض النعامة، حاولت أن أفرخ بيض النعام بأن دثرته في القطن ودفأته على الموقد.

في اليوم التالي، اتجهت أنا وفريتز إلى جزيرة القرش كي نبدأ مزرعة الأرانب وننقل زوجًا من الظباء، وبعدها حان الوقت لنلتفت إلى منزلنا ونركز على تخزين مؤننا.

تبين أن نعامة جاك صعبة التدريب وقد بدت ضعيفة وحزينة. أخيرًا تمكنا من إطعامها كرات من الدقيق الممزوجة بالزبد؛ فبدا أنها تأخذ في الانتعاش إذ بدأت تمد رقبتها الطويلة لتناول المزيد. وما لبثت أن عادت إلى كامل قوتها وصارت أليفة للغاية. أذهلنا أن نراها تأكل جميع أنواع الحبوب والفاكهة، وتلتقط معها بعض الحصى الصغير

لتسهل عملية الهضم. بعد شهر من التدريب، كانت تسير وتخب امتثالًا لأوامرنا. لكن كيف يمكن أن نركب على نعامة؟ صنعت نوعًا من الغطاء به حبال يمكن الإمساك بها وثبت تحته سرجًا صغيرًا. وعندما كان الطائر مستعدًّا، قررنا أن نسميه «سيد إعصار» بسبب سرعته.

عندما جربنا أخيرًا ركوب النعامة، فوجئنا بسرعتها الرهيبة. أصبحنا نستطيع الانتقال بين الحصن الصخري، الذي سرعان ما أصبح بيتنا الدائم الذي نعيش فيه، وبين غابة الصقور في لمح البصر. كان الطائر سريعًا للغاية حتى إن الأولاد تجادلوا مرة أخرى حول من يملكه، فاضطررت أن أتدخل وأتخذ قرارًا.

قلت: «النعامة نعامة جاك، قد يمكننا جميعًا استخدامها عند الحاجة لكنها ملك لجاك.»

وهكذا أصبح لدى جاك سيد إعصار الخاص به ليمتطيه. نجحت رحلتنا وشعرنا كلنا بالأمان والطمأنينة لأن ندخل في بيات شتوي.

الفصل السابع عشر

قارب جديد

سرعان ما أصبحت سحب الشتاء المكفهرة متأهبة مرة أخرى كي تصل بغزارة. ها قد حان الوقت لنتوقف عن مغامراتنا. غير أنه في هذا الشتاء شعرنا أننا محبوسون في منزلنا بالكهف.

اقترح فريتز: «لماذا لا نصنع زورق كياك جلديًّا خفيفًا من أجل الربيع؟»

بدت فكرة جيدة لأنها ستشغلنا جميعًا، فأضنينا أنفسنا في صنع القارب طيلة الشتاء الطويل.

بعدما انتهينا من صنع زورق الكياك الذي استغرق عدة أسابيع، لاحظنا تبدل حالة الجو، وازدهار العالم، وتغريد الطيور من جديد. وعندما توقفت الأمطار، جررنا تحفتنا التي صنعناها إلى الهواء الطلق. كم كان جميلًا أن نكون بالخارج. تركنا قارب الكياك وأبحرنا كلنا في قاربنا القديم كي نتفقد صحة حيواناتنا، فوجدنا ظباءنا بحالة جيدة. وحين هممنا بالرحيل من جزيرة القرش، أخذت زوجتي تجمع الطحالب البحرية لتحملها في حقيبتها.

سألتها: «ماذا ستفعلين بها؟»

أجابت وهي تغمز بعينيها: «إنها مفاجأة.» وتركتني في حيرتي.

بعد ظهر أحد الأيام، بعدها بأسابيع، وكنت قد نسيت هذه الواقعة، خرجت من الحصن الصخري وهي تحمل برطمانًا من الجيلي الشفاف. تجمعنا كلنا حوله وتذوقناه، فكان حلوًا شهيًا.

سألتها: «ما هذا؟»

أجابتني: «أتتذكر تلك الطحالب البحرية التي عثرت عليها منذ فترة؟»

قلت: «أجل، بالطبع.»

قالت: «هذا هو ما فعلته بها. لقد تعلمت هذا ذات مرة من إحدى صديقاتي.»

قلنا لها كلنا إنها عبقرية، وطار الأولاد فرحًا بالأكلة الشهية. فطاب قلب زوجتي لسعادتنا، ووعدناها أن نجمع المزيد من الطحالب البحرية.

بعد أن عرفنا أن ظباءنا بحالة جيدة، تفقدنا بعدها أرانبنا. وجدنا الأعشاب والنباتات ممضوغة بأسنان صغيرة. لم نر الأرانب لكننا أدركنا أنها كونت أسرة.

في اليوم التالي، خرج كل الأولاد من أجل مغامرة كبيرة، فعادوا في تلك الليلة راكضين ومتحمسين لأنهم اصطادوا كل أنواع الحيوانات والدجاج البرية. لقد كانوا مزهوين بأنفسهم، ورأيت أنهم صاروا صيادين حقيقيين. وأحضروا معهم أيضًا أجزاء من أشجار التفاح بلون القرفة والتفاح السكري. وكان فريتز مزهوًّا بشدة لأنه جمع ملء حقيبة من نبات الشوك.

قال فريتز: «هذه من أجل صنع الصوف!» كان على حق فهذه الأعشاب الضارة نافعة إلى حد بعيد.

في الوقت نفسه جمعنا الذرة وقضينا الكثير من الوقت في صيد الأسماك، ثم ملحنا وخللنا جميع ما لدينا من سمك. فإلى جانب برميلي السردين المملح اللذين حفظناهما من العام الماضي، أصبح لدينا كل شيء نحتاجه من أجل الشتاء.

والآن، وبعد أن جمعنا جميع الطعام، أراد فريتز أن يجرب زورق الكياك، فأطلقناه إلى الماء ثم أخذ يجدف بعيدًا. كانت والدته تشاهد وهي في شدة القلق عليه، وأظهر فريتز أنه يستطيع التعامل مع القارب. سار من خليج الأمان ومنه إلى البحر. تبعته أنا وبقية الصبيان بقاربنا الشراعي، لكننا لم نستطع اللحاق به، وسرعان ما غاب عن النظر مما جعل القلق يستبد بنا. وفجأة إذ بطلق يدوّي ثم رأينا دخانًا. أبحرنا بأقصى سرعة لدينا لنرى هل فريتز سالمًا، وجدناه سالمًا وقد اصطاد فرس البحر.

صرخت: «فريتز، أهنئك على صيدك. لكنك أقلقتنا كلنا بإبحارك بعيدًا.»

أجاب: «لم أشأ أن أفعل هذا يا أبي، لكن ما إن صرت وسط التيار، لم أستطع التوقف! وعندئذ رأيت حيوانات فرس البحر، فثار حماسي.»

قلت: «حسنًا، أنت محظوظ لأنك أبحرت لمسافة بعيدة دون أن يلحق بك ضرر. من الممكن أن يكون فرس البحر خطيرًا جدًّا. والآن ماذا سنفعل به؟ لا بد أن طوله أربعة عشر قدمًا!»

قال فريتز: «أنا سعيد لأنك تبعتني يا أبي، على الأقل بوجودنا معًا سنستطيع أن ننقله إلى القارب الشراعي!»

أثناء حديثنا، قرر فريتز أن رأس فرس البحر ستبدو رائعة على زورقه. وعرضت أن أقطر زورقه إلى الشاطئ خلفنا، لكنه أراد أن يتجه إلى المنزل بنفس الطريقة التي جاء بها. لقد أراد أن يُري والدته أنه سليم تمامًا.

ولم نكد ندعه يذهب حتى اكفهرت السماء، وجلبت في أعقابها عاصفة هوجاء. لم يكن فريتز على مرمى بصرنا ولم نستطع أن نساعده. كانت الأمواج عاتية للغاية، حتى إننا اضطررنا أن نربط أنفسنا بالقارب حتى لا ننجرف من فوق سطح المركب. استبد بي الرعب عليه وعلينا.

كان أولادي شجعانًا وصمد قاربنا، لكنني دعوت أن ينجو فريتز بأي طريقة من الريح والمطر. أخيرًا، حين بدأ الطقس يصفو شققنا طريقنا عائدين إلى خليج الاكتشافات.

وعندما اقتربنا بدرجة كافية تمكننا من رؤية الشاطئ، ضحكنا جميعًا عندما رأينا فريتز يقف على الشاطئ. كانت زوجتي هناك أيضًا جاثية تدعو من أجل عودتنا سالمين. اجتمع شمل العائلة مرة أخرى في المنزل سالمين.